

في جنوب بلاد العرب

هد العمران

اشترك المتحف البريطاني ومتحف جامعة فلادلفيا في ارسال بعثة اثرية الى العراق برئاسة المستر ولي لخصرت هذه البعثة اعمالها اولاً في تل الابيض اور انكلدابين الواقعة على ضفة الفرات الجنوبية تبعد نحو ١٠٠ ميل عن البصرة . فعمرت في شتاء سنة ١٩٢٥ على اقدم آثار العمران في العراق ومنها كتابة معاصرة للملك كان يُحسب خرافياً وقطعة من النقش النقيس لم ينتظر العثور عليها هناك . اما الكتابة فتدور على الملك ابي بادا بن مس ابي بادا وهي اقدم وثيقة تاريخية مؤرخة ، وكاشفها يرى ان عهدا يرجع الى نحو اربعة آلاف سنة قبل المسيح . اما النقش فتلوح عليه امائر الفن السري وتل الابيض حيث وجدت كانت مصدر كثير من اقدم الآثار السمرية . لذلك رأيت^(١) ان اخلص ما يعرف عن الحضارات القديمة في العراق وفي مصر وان ابدى رأياً قد يطل منشا الحضارة في البلادين

اصحاب الخرف المدهون

لم يكن السمريون الذين وجدت آثارهم في تل الابيض سكان العراق الأول . فقد سبقهم الى الاماكن التي بنوا فيها هياكل اور واروو (ابرشهرين) اناس سابقون لهد التاريخ المدون يسبح ان ندعوم « اصحاب الخرف المدهون » وهم يختلفون كل الاختلاف عن السمرين وقد يكونون رحلوا عن تلك الاماكن قبل قدوم السمرين اليها بزمان طويل . هؤلاء الاقوام كانوا يصنعون خزفاً بديعاً في اشكاله والوانه من غير دولاب الخزاف . ويعرسوا في الامور الزراعية فكانوا يستخدمون محراثاً من الحجر لحث الارض ويحصدون غلالهم بمناجل من الاجر ويطحنون حنطتهم بدقها بمحجر على حجر . ويستدل من آثارهم انهم كانوا يبيكون ، ومن سلحتهم القوس والقلع والفاس الحجرية ومن حلام دبايس من السج وخرز من العقيق ولم يعرفوا الكتابة ولا النقش في الحجر مما يدل على انهم لم يستعملوا المعادن . وكانوا يأكلون الحبوب والسمك وانواع الحمار ويرجع انهم كانوا

(١) المقالة تستر كروفورد من موظفي الساحة الحربية البريطانية وقد نشرت في جزء بشير الماضي من مجلة الجمعية الجغرافية الاميركية

يصطادون الطيور والحيوانات الصغيرة بالقتل والحجر أو بالقوس والنشاب. وأما ما كنهم فكانت في الغالب أكواخاً من القصب كقيام بعض قبائل البدو

ويقال ان هؤلاء الاقوام كانوا يبتغون عن السمربين في انهم لم يدجنوا الحيوانات اذ كانوا زراعاً وصيادين. ومما يؤيد هذا القول وجود كثير من رؤوس السهام الصوانية بين آثارهم. وأما السمربيون فلم يستعملوا السهام في اول عودهم بالبلاد

وما يعرف عن هؤلاء الاقوام السابقين لسمربين عدا ما تقدم نزره لا يعتمد عليه. وقد وجدت آنية خزفية تماثل خزفهم كل الماثلة في جزيرة بندر بوشير في خليج فارس. ووجدت البعثة الفرنسية خزفاً مدهوناً يشبه خزفهم في السويدي بوشون على عمق ٨٠ قدماً. وعثرت كذلك على ما يماثل هذا الخزف في سوزيان على مقربة من شوشن. لذلك يرى المتر فرنكنورت احد اعضاء المعهد الاثريولوجي الملكي بلندن ان اصحاب الخزف المدهون هاجروا من شوشن الى العراق وان موزيان وهي على ١٥٠ كيلومتراً من شوشن غرباً كانت محطة لهم بين المكانين

وكيف كانت الحال فان ما نعرفه عن هؤلاء الصيادين الاقدمين نزر ولا يهنا امره بوجه خاص لانهم زالوا من غير ان يتركوا وراءهم آثار حضارة حية. والراجح انهم جاؤا من الشمال فمن الممكن ان هواة ايران كان آخذاً في الجفاف حينئذ والحيوانات التي كانوا يصطادونها جملت تنتقل الى الجبال في الجنوب والى السهول التي على سفان دجلة والفرات

السمربيون

م السمربيون الذين انشأوا الحضارة في العراق اذ جلبوا معهم الادوات النحاسية والكتابة عدا الحيوانات الداجنة كما تقدم وكانوا يلبسون لباساً خاصاً كأنه رداء مثنى اسمه بايونانية كوناكس (Kaunakes) وكان الجانب الاعلى من اجسامهم عارياً. من اين جاء هؤلاء الناس؟ ان الكوناكس لباس لا يتفق ليه مع الاقاليم الباردة بل يدل على انه يلبس في اقاليم الجنوب الحارة. ويدل المتر فرنكنورت بادلة قوية على ان هؤلاء الناس لم يأتوا من الشمال وليس من الادلة الاثرية ما يؤيد هذا المشأ. ولم يُشر احد من الباحثين الى احتمال قدومهم من جهة غربية شمالية لان ذلك بعيد الاحتمال. فلا يبقى لدينا سوى جهتين الشرق الجنوبي والجنوب. وحينما نحاول ان نختار بين احدهما نرى الادلة ضئيلة لا تجعل الاختيار سهل المنال. فان الكوناكس يوافق اقليم الناحيتين الجنوبية والشرقية الجنوبية. وعلنا ذلك فاننا نعرف ان ديانتهم كما ظهرت آثارها

في اور وغيرها ديانة شعب يقطن الجبال . فقد كانوا يقيمون أكاما كبيرة يشنون عليها معابدم لعدم وجود «الاماكن العالية» في السهول . وكتابتهم على ما يقول العارفون لا بد ان تكون قد نشأت في بلاد جبلية ولا شك في انهم استنبطوها قبل وصولهم الى السهول

اتصلهم بالحضارات الهندية

وقد ارتأى الدكتور هول مؤلف تاريخ الشرق الادنى القديم ان اصل السمرين من الهند والمكتشفات الاثرية الحديثة هناك تدل على وجود حضارة قديمة لم تعرف قبلاً^(١) فالآثار التي وجدت في موهنجودارو ولاركانا في الهند وهاربا على نهراقي تدل على وجود شعب كبير بينها وبين الآثار السمرية التي وجدت في شوشن سواها في ذلك الاختتام او صور الشيران او نوع الكتابة . فحسب الباحثون ان هذا الشابه لا يمكن ان يكون قد حدث اتفاقاً ولذلك ارتأى بعضهم ان اصحاب هذه الحضارة التي وجدت آثارها في الهند كانوا على اتصال بالحضارة السمرية حوالي ٣٠٠٠ سنة او ٢٨٠٠ سنة قبل المسيح هل جاء السمرين من الهند؟ اننا لا نرى ذلك لان اماننا اعتراضات حجة على هذا الرأي . اذا صح ان تاريخ اتصال الهنود بالسمرين يرجع الى حوالي الالف الثالث قبل المسيح فقد كان ذلك قرونًا كثيرة بعد قدوم السمرين الى العراق على اقل تقدير. واذا كانت اصول احدى الحضارتين مستمدة من الاخرى فاصول الحضارة الهندية مستمدة من الحضارة السمرية . قد يكشف الباحثون آثاراً في الهند اقدم عهداً من الآثار التي وجدت حتى الآن . فاذا كشفت آثار كهذه وظهر منها ان الكتابة الهندية سارت في نشوئها سير الكتابة السمرية التي تشبهها ، اسكن القول باحتمال قدوم السمرين من الهند . اما وليس لدينا ما يثبت ذلك فوجوه الشيد التي وجدت في الآثار المكتشفة حديثاً لا يمكن لتأييد هذا الرأي

ولما كانت اور بال لا تزال تضرب في مجاهل العصر الظرفاني ، كان العمران زاهياً زاهراً في اربع بقع غير البقعة المذكورة وهي كريت حيث بدأ العمران في اوائل الالف الثالث قبل المسيح ان لم يكن قبل ذلك واتصل بالجزائر والبلدان المجاورة . والثاني في اسيا الصغرى والثالث في الصين والرابع في مصر

(١) راجع مقتطف نوفمبر ١٩٣٤ ص ٤٣١

الخنزارة المصرية المعاصرة

بدأ العهد التاريخي في مصر حوالي أواسط الألف الرابع قبل المسيح على أقل تقدير وسببها عهد من الخنزارة السابقة للتاريخ المذون ينقسم الى قسمين امتاز القسم الثاني منها بأسلوب فني من نوع الاسلوب الفني الذي عثر عليه في آثار شوشن عاصمة فارس القديمة على انعدام كل صلة جغرافية بين اصحاب الاسلوبين . وعلى اثر ذلك ارتأى بعض الباحثين ان سكان مصر في تلك الحقبة السابقة للتاريخ جاؤاها من الصحراء الشرقية . وحيث انهم لم يأتوا من نوبيا حتماً فالراجح ان القول بقدمهم من الصحراء الشرقية صواب

كذلك من المحتمل ان عمران مصر في ايام الاسرافيرونية جاءها عن يد شعب ظنر كما حدث في سوريا . على ان نشوء العمران في مصر في العهدين التاريخي والسابق للتاريخ نشوء مستمر ولا شك في ان موجات من الغزاة طفت على مصر بين آن وآخر كما يظهر من اثرهم في الفن المصري على الاكبر ليس من الحتم ان يكونوا دخلوها غزاة فاتحين . وكثف اثرهم في الفن المصري من اقوى الادلة على دقة المباحث الاركيولوجية

الاثر الاسيوي في الفن المصري القديم

وجد حديثاً في جبل العرق قبضة سكين عاجية منقوشة ، وهي في متحف اللوفر الآن ، وهذه القبضة تثبت على وجود قاطع وجود اثر اسوي في مصر . ففي اعلى القبضة على احد جانبيها صورة رجل او بطل قابض على اسدين شديدين اسد عن يمينه والآخر عن شماله

فهذا الترتيب مما يمتاز به الفن العراقي القديم ويعيد الى الذهن خرافات جلفميش ولا ريب في ان الرداء الذي يرتديه البطل في هذه الصورة عراقي . كذلك لحيتة المرسله ولباس رأسه . وتحت هذه الصورة صورة كلبين لا يشبهان كلاب مصر في شيء وتحتها اسد يقفز على كفل ثور « يسير بهدوء كأن لم يحدث حادث ما » فموضوع هذه الصورة عراقي واسلوب تصويرها ونقشها مماثل اسلوب الفن الذي عثر على آثاره في شوشن كما تقدم . والاشكلة كثيرة على وجود اثر اسوي في الفن المصري فنكتفي بما تقدم . ويظهر ان البناء بالطوب كان من الامور المشتركة بين البلادين فقد استخدم المصريون الطوب في بناء مصاطب الاسرة الاولى وتظهر آثاره في الاختتام الاسطوانية التي عثر عليها في العراق

واذا تجاوزنا النظر في الامور الفنية الى اتصال البلادين جغرافياً وجدنا من الادلة

ما يؤكد هذا النظر . لأنه ثبت تقريباً ان القادمين (الى العراق) التقوا بالمصريين على شواطئ البحر الاحمر حيث يمتد وادي الحمامات الى النيل . فعلى ضفة البحر الاحمر المصرية قرب وادي الحمامات عثر الناقبون على اقدم الآثار التي ترجع الى العهد السابق للفرع في مصر وقد ثبت ان العناصر الغربية عن مصر كانت على اتصال بالاسرة الاولى المصرية وهي الاسرة التي نشأت في جوار وادي الحمامات . فالراجح ان البحر الاحمر عبر حينئذ وقد ثبت من قبضة السكين الماجية التي وجدت في جبل العرق ان هؤلاء التوم الغرباء كان عندهم سفن . ونشر المستر فونكفورت ادلة اخرى اثبتت فنية لاثبات ذلك لا محل لبسطها هنا يستخلص منها ان بعض الهووالي وجدت على آية في العراق وعلى آية اخرى في مصر من عهد الاسرة الاولى متشابهة تماماً مع انها ليست مصرية في شيء فالراجح ان المصريين اقتبسوها من السمرين

بلاد العرب مهد العمران

نقدم معاً ان السمرين جاؤا العراق من الجنوب في الغالب وليس من الهند وان هناك اثراً اسيوياً في الفن المصري القديم والظاهر ان هذا الاثر سمري قبل نستطيع ان نجد مصدرأ واحداً للسمرين ولما نحبة اثراً عراقياً في مصر ؟ هل خرج السمريون من بقعة في جنوب بلاد العرب اصححت الآن قاحلة ، بدفعهم الدافع الذي دفع اصحاب الخرف المدهون من شوشن الى ما بين النهرين اي تغير الاقليم ؟ هل توطن جماعة من هؤلاء السمرين الرحل وادي الفرات وتوطن جانب آخر منهم وادي النيل ؟

اذا حصرنا نظرنا في الادلة العقلية ترجع لنا ان السمرين كانوا يقطنون جانباً من جنوب بلاد العرب اذ لا تعرف عملاً آخر يصح ان يكون موطنهم الاول . ولكن القول بان جنوب بلاد العرب مصدر الاثر اسيوي في الفن المصري المتقدم ذكره شديد الاقتدار الى الاثبات . على انه لا يحسن بنا الاغضاء عن رأي يطل حادثين بعلة واحدة وهذه العلة مبني على تغير الاحوال الجوية في البلدان المذكورة وهيطة متينة الاساس . فن المعروف لدى علماء الظواهر الجوية ان جفاف الصحاري زاد بعد انتشاء العصر الجليدي الاخير وهناك ما يبرح القول بان صحاري اسيا وانريقية كانت ارضاً معشوشبة مأهولة في الغالب ، في جانب من العصر الجليدي الاخير . والراجح ان الانسان في تلك الازمنة القديمة اقبل على السكن فيها سواء كان صياداً او راعياً رحالة . فاذا قل متوسط ما يقع في تلك الاراضي من المطر تحولت حالاً الى صحراء قاحلة فيهجرها ساكنوها الى الاودية

التي يكثر فيها المنظر . ولا يبعد ان اسباباً كهذه الاسباب كانت فعالة في افرقية ولسها كانت السبب الاول في دفع الناس الى سكن وادي النيل وتفرق الشعوب من العصر الحجري الحديث في اطراف اوربا الغربية . ولعلها ايضاً كانت السبب في سوق سكان اواسط اسيا الرحل الى سهول الصين . على ان تفرق الشعوب في تلك العصور القديمة لا يهتاهنا في المقام الاول

فهل وجدت ادلة تثبت وجود عمران سمري قديم في جنوب بلاد العرب ؟ كلاً لان تلك البقعة هي من البقاع القليلة التي لم يعمل فيها معول النابيين الى الآن . وزد على ذلك فان الرحالين الاوربيين لم يلفوا اليها الا نادراً وحينئذ اكتفوا بنظرة عجلية الى جغرافية البلاد واحوال اهلها . فقد يوجد في اليمن وحضرموت وعمان اكمام في جوفها آثار قديمة كالاكمام التي عثر عليها حديثاً في وادي السند بالهند . واذ كان ذلك ممكناً في الهند بعد اقتضاء ١٥٠ سنة على احتلال الانكليز لها ومرور سنين كثيرة على البحث الاثري المنتظم في ارجائها افلا يسوغ لنا ما تأمله من الشعور على ما يماثلها في ارجاء بلاد العرب المذكورة ؟ واننا نجد في كتابة الماجور تشيزمن آخر الرواد الذين اخترقوا جنوب بلاد العرب ما يوافق رأينا مع انه ليس من القوة بحيث يتخذ دليلاً متيناً . فقد وصف سكان واحة المرة في وصف جبرين بعد زيارته لها سنة ١٩٢٣ قال انهم يسكنون الخيام ويسكنون الرابية عدالسانهم القوي وكانوا الى سنة ١٩٢١ وثمانين واعدادهم قبيلة العوامر يتجولون في الصحراء الى الجنوب ويسكنون لسائناً آخر تصفه قبيلة المرة بانها سلسلة من الحروف الخلفية ثم يقول المستر تشيزمن «ان ملاح الوجه في قبيلة المرة يدركني بملامح رأيتها على نقوش سمرية قديمة فاذا حسبنا انهم بقايا تلك الامة القديمة لم يكن حباننا من قبيل النيل لان الترحلات ومرور الامم على طرق التجارة لا تؤثر فيهم ولا نزال منهم تغييراً ما في مقل الصحراء»

فاذا اعتمدنا على هذا الرأي — وجود حضارة قديمة في جنوب بلاد العرب — فممكننا من تليل الاثر الاجنبي في مصر القديمة تمايلاً ابلغ من تليله باتصال مباشرين مصر والعراق . وقد قال لي عالم اميركي مختص بالتاريخ المصري القديم ان التقب في اليمن من الغايات القليلة التي لم يسع اليها عملاء الآثار بعد . كان ذلك قبيل الحرب وكان يأمل ان تبدأ عملية التقب هناك . على ان نشوب الحرب الكبري اوقف كل بحث في مهد العمران